

## المؤرخ والدولة

### The Historian and the State

#### مقدمة

ربما تلخص التحديات التي واجهت حقل الدراسات التاريخية في العراق الحديث، مجمل التحديات التي واجهت العلوم الاجتماعية والإنسانية، في سائر الدول الوطنية الناشئة في حقبة ما بعد الاستعمار، غير أنها تظهر في حقل الدراسات التاريخية بشكل أوضح مما هي عليه في سائر هذه العلوم، بسبب أن هذا الحقل لم يكن - في سياق نشأته وتطوره في بلد كالعراق والأطر السوسيولوجية لهذه النشأة - مجرد حقل علمي أكاديمي، بل إنه ارتبط - على نحو ما وبهذا القدر أو ذاك - بعملية بناء الدولة الناشئة وإنتاج ذاكرتها والسرديات عنها، وتطورات نظمها السياسية، وأشكال هذه النظم، ولا سيما شكلها السلطوي المزمن. ومن ثم، لم يكن حقل الدراسات التاريخية محسناً من كل هذا السياق.

وعلى نحو عام، تعاملت الدولة الناشئة مع العلوم الاجتماعية والأكاديميات التي أنشأتها لتختص بها تعاملاً أداتياً؛ بمعنى أنها لم تنظر إليها بوصفها مراكز إنتاج علمي، بل أدوات تُتيج لها احتياجاتها، وهي في طور التأسيس. وتقف عملية بناء كادر بيروقراطي لإدارة الدولة الناشئة وأجهزتها في صدارة هذه الاحتياجات<sup>(1)</sup>، غير أن الأمر تعدى ذلك إلى الاحتياجات المعنوية والرمادية للدولة.

ظللت "الدولة" عاملًّا أساسياً في فهم تطور العلوم الاجتماعية والإنسانية في بلد كالعراق. الدولة، بأشكال مختلفة، سواء كانت بمعناها المجرد عن أي إيحاء أيديولوجي أو هوبياتي، أو كانت تشير إلى النخبة المسيطرة على إدارتها، أو الحزب والأيديولوجيا الحاكمة. وقد كانت علاقة العلوم الاجتماعية بالدولة تتحرك ضمن هذه المروحة من المعاني.

## الدولة فضاءً للعلوم الاجتماعية والإنسانية موضوعاً للتاريخ

تفتح الدولة الحديثة العلوم الاجتماعية والإنسانية الموصوفة بأنها "عراقية"، فلا معرفة اجتماعية عراقية قبل الدولة الحديثة (إلا على نحو محدود جداً وخاص، سأوضحه لاحقاً)؛ ليس فقط لأن "العراق" من حيث هو كيان حديث تشكل مع تشكيل الدولة الحديثة فيه، ومن ثم، لا معنى لمعنى لهوية عراقية قبل هذا التاريخ<sup>(3)</sup>، بل لأن الدولة الحديثة غيرت - بشكل جذري - من المعارف التي يمكن

1 باحث في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، رئيس قسم الأبحاث في المركز.

Researcher at the Arab Center for Research and Policy Studies, Head of Research Department.

2 فالح عبد الجبار [وآخرون]، *وضع العلوم الاجتماعية في الجامعات العراقية: مسح - تقييم - آفاق التطور* (بغداد: معهد الدراسات الاستراتيجية، 2007)، ص 37-136-135.

3 يخضع هذا الأمر إلى سجال كبير. أدرك أن "العراق"، بوصفه تعبيراً عن وحدة سياسية، يسبق الإعلان الرسمي عن قيام دولة حديثة فيه في الفترة 1920-1921. وبحسب متابعي، تظهر فكرة "العراق" من حيث هو وحدة سياسية واحدة في نصوص أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. وأود، هنا، أن أورد مثلاً هو نص الأب أنسناس الكرمي (1866-1947)، في مقدمة العدد الأول من مجلة لغة العرب، الصادر في عام 1911، وهو نص تظهر فيه - بوضوح لافت - فكرة العراق، من حيث هو وحدة

عدها، على نحو من الأنحاء، "معارف اجتماعية". فالمعارف الناشئة التي استتبعتها الدولة الحديثة، وتبعد - ظاهرياً - استمراً للشكل القديم من المعارف (في النوع، في أقل التقديرات)، تغيرت على نحو جذري؛ لا في مقارباتها ومناهجها فحسب، بل في موضوعاتها أيضاً، فصارت هذه المعارف تتناول الدولة نفسها، وما أحدثته من هوية حديثة، ونظام مركزي، وما إلى ذلك.

وبلا شك، أطلقت مجموعة من الدول الوطنية عملية "تأصيل قومي" واسعة، فتبت سرديات عن عراقة الهوية الوطنية، طوال مئات أوآلاف السنين، حتى ما قبل تشكيل القومية بوصفها ظاهرة حديثة. ولم تترك عملية التأصيل هذه، في حالات غير قليلة، حتى المعارف الناتجة قدماً في الحيز الجغرافي نفسه للدولة الوطنية الحديثة، لتوّهم الدولة الحديثة من ثم المعرفة القديمة، وتعدّها جزءاً من تاريخها (مثال ذلك أن يجري التعامل مع الخليل بن أحمد، ت. 175هـ/791م، بوصفه عراقياً، أو مع عبد الرحمن بن خلدون، ت. 808هـ/1406م، بوصفه تونسياً). غير أنه ينبغي القول إن عملية التأصيل هذه هي عملية لاتاريخية، ولا قيمة معرفية أو تاريخية لها، سوى قيمتها داخل السرديات القومية الناشئة. والهوية التي تجري نسبة هذه المعرفة إليها، لا تدعو أن تكون محض هوية جغرافية، لا هوية قومية.

لقد قام مؤرخو المعرفة القوميون بعملية واسعة لتأميم المعرف والفنون التي نشأت في العراق ما قبل الدولة الحديثة (بوصفه حيناً جغرافياً سيتشكل عليه كيان سياسي حديث)، لتعلقها عليها - بسلامة - وصف "عربي". فعل سبيل المثال، ظهرت مجموعة من الأدبيات المهمة، في إطار التاريخ الأدبي، التي أرخت للشعر الذي كتب في العراق في القرن التاسع عشر بوصفه "شاعراً عراقياً"، هذا مع أن أي تحليل نصي أو مضموني لهذا الشعر سيكشف عن أن "العراق" بوصفه كياناً سياسياً حديثاً ووطناً ليس من مدركات هذا الشعر، فقيمة الوطنية لا تحضر لدى شعراء القرن التاسع عشر كما تحضر لدى شعراء الدولة الوطنية لاحقاً (الجواهري، 1899-1997، والسياب، 1926-1964، وسواهما)<sup>(4)</sup>. ويصدق الأمر نفسه على المصنفات "التاريخية" التي ظهرت في العراق في القرن التاسع عشر وسائر الحقبة العثمانية<sup>(5)</sup>. وأضع كلمة "التاريخية" بين طفرين؛ لأن "الخطاب التاريخي" في تلك المرحلة متاثر وموزع بين مصنفات

سياسية، ووطن، وأمة، يقول الكرمي: "عقدنا النية على إصدار هذه المجلة الشهيرية خدمةً للوطن والعلم والأدب. والغاية من إنشائنا: أن نعزّز العراق وأهله ومشاهيره، بمن جاورنا من سكان الديار الشرقية وبمن نأى عننا من العلماء والباحثين والمستشرقين من الأقطار الغربية، وننقل إلى وطنينا العراقيين ما يكتبه عنهم الأفريقيون وغيرهم من الكتاب المشهورين، عن بلادهم وأقوامهم [...]" فرأينا من المناسب أن ننشئ مجلة تعيّن بما في الأمية، ليدخل العراق في مصاف الريوبي المعرفة، بين الأمم المتقدمة المتحضرية". ينظر: "المقدمة"، لـ"لغة العرب، ج 1 (تموز / يوليو 1911)، ص 21-21؛ وبرى عصام الخفاجي (1950)، في سياق محاججته الفكرة التي مفادها أن العراق كيان اختلقه القوى الاستعمارية، أن العراق الحديث تعبير عن ديناميكيات داخلية في الأساس، يمكن أن ترجمتها إلى القرن الثامن عشر، مع إجراءات الدولة العثمانية بربط ولايات (أو إدارات) الموصل وشہرور و بغداد والبصرة بوحدة بيروقراطية مركزية في بغداد، وأن الخلط الاستعماري كانت استجابة لهذه الديناميكيات الداخلية. يُنظر: عصام الخفاجي، تشكيل العراق الحديث: الواقع والأساطير"، كملن: فصلية ثقافية، العدد 7 (2012)، ص 14-16. للتوضيح، يُنظر: نهار محمد نوري، "العراق ليس مصطنعاً: النزعات العراقوية ودحض فرضية الدولة المصطنعة"، أسطورة، العدد 8 (تموز / يوليو 2018)، ص 74-108.

4 يُنظر: محمد مهدي البصیر، نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر (بغداد: مطبعة المارف، 1946)؛ إبراهيم الوائلي، الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر (بغداد: مطبعة العاني، 1961)؛ يوسف عز الدين، الشعر العراقي: أهدافه وخصائصه في القرن التاسع عشر (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، 1965). ولم تتردد هذه الأدبيات في وصف هذا الشعر بأنه "عربي"، وفي وصف شعرائه بأنهم "عراقيون"، بل إنها لم تفرد مساحة لمناقشته وجاهة هذا الوصف، وتعاملت معه على أنه أمر يديهي، على الرغم من أن أصحاب الأسماء البارزة من هؤلاء الشعراء جمِيعاً (عبد الباقى العمري، 1788-1861، وعبد الغفار الأخرس، 1803-1873، ومحمد سعيد الحبوي، 1849-1915)، لم يدركوا الدولة الحديثة، فال بصیر - ثلا - ينالش، في كتابه المذكور أعلاه، قيمة هذا الشعر، وبرى أنه يسجل الحياة السياسية والاجتماعية في عصره، يُنظر: البصیر، ص 326-328، ولكنه لا ينالش البثة إن كانت قيمة "الوطنية العراقية" تحضر في هذا الشعر أم إنها لا تحضر فيه.

5 يوفر كتاب عماد السلام رؤوف التاريخ والمورخون العراقيون في العهد العثماني (1983) مادة مهمة عن المصنفات التاريخية التي ظهرت في العراق في تلك الحقبة، ولا سيما القرن التاسع عشر. أما في وصف المؤرخين بأنهم "عراقيون"، فيعتمد رؤوف تعريفاً إجرائياً، إذ يقول: "في ظل عدم وجود قوانين الجنسية، وأنظمة الإقامة، وحدود مرسومة للبلاد، وقلة المعلومات أحياناً عن أصول القاطنين في العراق آنذاك، لم يرق أبداً أن نعد العراقي هو كل من ولد في العراق، أو وقد إليه صغيراً، عاش في أرضه، وتلقى العلم على يد علمائه، وأتقن لغة أهله، وتنسب إلى بعض مدنه، فقيق له الحائز والغزو والمغادي والإرلي والمصري مثلاً، وتوفي فيه". يُنظر: عماد السلام رؤوف، التاريخ والمورخون العراقيون في العهد العثماني، ط 2 (لندن: دار الوراق للنشر، 2009)، ص 8. وبالتالي، لا يتتطابق هذا التحديد مع مفاهيم القومية والجنسية التي شاعت لاحقاً.

تنتهي إلى حقول و مجالات عدّة، منها الترجم، والسير، والمناقب، والرحلات، والمعاجم الجغرافية، وما يدور في هذه الدائرة<sup>(6)</sup>. وكلها تنتهي، في نمط التأليف، إلى التقاليد الكلاسيكية للكتابة التاريخية العربية الإسلامية، وهو النموذج الذي كان سائداً إلى مطلع القرن العشرين، مع لحظة قيام الدولة الحديثة. وحتى بعض المصنفات، التي يرى عماد عبد السلام رؤوف (1948-2021)، في دراسته للمصنفات التاريخية في العراق في العهد العثماني، أنها يمكن أن تعبّر عن اتجاهات جديدة (من قبيل المصنفات التي ظهرت بتأثير الدور الشعافي البارز الذي أذته الكنيسة، ولا سيما دير الآباء الدومينيكان في الموصل، وتناولت التاريخ الكثسي وتاريخ الطوائف المسيحية، ومن ذلك تأريخ بعض المجموعات والأقليات الدينية في العراق، ومن قبيل المصنفات التي تناولت تاريخ العشائر المنتشرة في العراق، أو التي تناولت تاريخ العالم والتاريخ الأوروبي، أو التاريخ القديم، ومنه تاريخ العرب قبل الإسلام)، لا تدعو أن تكون جزءاً محدوداً ويسيراً جدّاً، وهامشاً صغيراً، بالنسبة إلى النموذج الكلاسيكي الذي ظل مسيطراً على الكتابة التاريخية آنذاك. ويشمل هذا الحكم حتى المصنفات التي تناولت تاريخ المدن والبلدات، استمراً للتقاليد العربية القديمة في هذا المجال، ومنها المجموعة التي تتناول تاريخ بغداد، وظهرت في القرن التاسع عشر، ويشير رؤوف إلى أن مفهوم "بغداد" فيها توسيع ليشمل حواضر العراق الكبرى جمِيعاً<sup>(7)</sup>.

ومن ثم، لم يكن "العراق"، بوصفه كياناً سياسياً، موضوع هذا الخطاب التاريخي، بخلاف ما سيحدث بُعد تشكيل الدولة الحديثة<sup>(8)</sup>، وبالأخرى، بالتزامن مع قيامها؛ إذ ظهرت عدّة مصنفات يمكن عدّها مصنفات تاريخية، حملت داخلها خطاباً تاريخياً، مغايراً تماماً لما شاع في العراق خلال الحقبة العثمانية.

إذاً، ناصر حقل "الدراسات التاريخية"، هنا، سواء الذي نصفه بأنه "حديث"، أو "عرقي"، على الحقيقة التي تشكلت معها الدولة الوطنية الحديثة، في الربع الأول من القرن العشرين، حتى إن كانت ثمة كتابات تاريخية ما قبل الدولة الحديثة تصفها دراسات معاصرة بأنها "عراقية"؛ أي بإسقاط القومية الحديثة بأثر رجعي على الطبقات التاريخية المختلفة لحيّها الجغرافي، أو حتى إن تناولت هذه الكتاباتُ التاريخية بعض الم الموضوعات التي يمكن أن تدرج في العصر الحديث.

لقد وضعت الدولة الوطنية حدوداً جديدة لـ "المجال" الذي تتحرك فيه و تتجه إليه الدراساتُ التاريخية، ستقع في صلب أي نقاش يخص هذا الحقل. ويمكن القول إن الوعي بالحدود الجديدة التي تفرضها الدولة الوطنية (وبالدولة نفسها بوصفها متغيراً جوهرياً)، الذي يرافق تأسيس خطاب تاريخي، أو حقل للدراسات التاريخية، هو أولى من تحديد التحديات والإشكاليات ذات الطابع الإبستيمولوجي التي تواجه هذا الحقل. وبغضّ هذه الإشكاليات سيتّمفصّل مع ما يمكن تسميته "دولنة" الكتابة التاريخية، على نحو ما سنلاحظ. وهذا الأمر هو ما يهمني تشخيصه أولاً هنا.

وبقدر ما كان تأسيس الدولة الحديثة هو الحدث المفصلي الأكثر أهمية الذي شهدته العراق منذ قرون، ربما كان من الطبيعي أن تقف هذه المصنفات عند نشأة الدولة، والسيارات التاريخية والسياسية التي أوصلت إليها. ومن ثم، تعلق الخطابُ التاريخي المحايث

6 المرجع نفسه، ص 489-238، 108-67.

7 المرجع نفسه، ص 78-79.

8 تبني الإشارة، هنا، إلى ظهور بعض الرسائل، في القرن التاسع عشر، التي تؤرخ لبعض الأحداث المعاصرة ذات الطابع المحلي، وكذلك ظهور مصنفات تؤرخ لحكام الماليك والحكومات المحلية في المدن، وهو نمط الحكم الذي ساد في العراق ما بين أواسط القرن الثامن عشر وأواسط القرن التاسع عشر، قبل أن يعود العراق إلى الحكم العثماني المركزي. وفي تقديري، لا يمكن عدّ هذه المصنفات جزءاً للتاريخ للدولة الحديثة، الذي ظهر غداة قيامها، فهو لا يُؤرخ لمؤسسات، ولا يتبع كرونولوجيا لتأريخ سياسي، كما في التقاليد التاريخية العربية الإسلامية، بل إنه - بحسب رؤوف - نتاج التأثر بأنماط التواريХ الشرقيّة والفارسية (الساسانية)، التي ترتكز على تواريХ الملك والسلطانين. وقد تفشي هذا النمط في الكتابة التاريخية في العراق ما بعد سقوط الدولة العباسية، في القرنين السابع والثامن للهجرة (الثالث عشر والرابع عشر للميلاد)، حين فقد العراق قدرة الحفاظ على تقاليد الكتابة التاريخية العربية الإسلامية والمبادرة إلى الاتجاه التقافي والفكري، لتنقل - منذ ذلك التاريخ - إلى مصر وبلاط الشام، يُنظر: المرجع نفسه، ص 22-19.

لنشأة الدولة بها، لصناعة سردية محددة عن الدولة الناشئة، وهي أنها نتاج وثمرة نصال عيني ملموس، ومشروع فكري، ورؤبة، بما ينفي أي سردية أخرى. وبالتالي، كان أحد العوامل الأساسية لمبادرة المؤرخين العراقيين إلى بناء هذه "السردية الوطنية" عن نشأة الدولة، والتي تتطابق - في كثير من مفاصلها - مع ما تؤمن به النخبة السياسية والقومية القائمة، هو سعيهم إلى مواجهة "السردية الاستعمارية" التي دارت على ما يمكن تسميتها (بلغة العلوم الاجتماعية اليوم) "ممانعة قوى ما قبل الدولة". وبعد عقود، تطورت هذه السردية الأخيرة إلى "أطروحة"، جرى تداولها كثيراً في الأوساط الأكademية الغربية، منذ مطلع العشرينات من القرن العشرين (وكانت بمنزلة "لامفكرة فيه" لدى المثقفين العراقيين، صناع السردية السالفة، التي كانوا منغمسين فيها، ولا يستطيعون - ربما - التفكير خارجها)، وهي أن العراق كيان مصطنع، لفقة الاستعمار البريطاني، ومن ثم، لأنصال عبيداً، ولا هوية، ولا مشروع فكريًّا، ولا رؤبة، كما تدعى السردية الأولى، التي أرادت أن تكرّس أن العراق هو نتاج كفاح دام لأنائه ونخبه، يقوم على رؤبة واضحة.

منذ مطلع العشرينات من القرن العشرين، ظهر أكثر من مصنف بريطاني عن العراق، وكلها كانت معروفة ومتدولة بين المؤرخين والمثقفين العراقيين، على نحو عام، وقد عملوا على ترجمتها إلى العربية في وقت مبكر. وهي مصنفات مهمة، أسهمت في إنتاجها أسماء بارزة من أقطاب الحملة البريطانية على العراق، سياسياً وعسكرياً، فضلاً عما أنتجه باحثون ومؤرخون أكادميين. ومن أبرز هذه الأعمال، الكتاب الذي أصدره الجنرال أيلمر هالدين (1862-1950)، القائد العام للقوات البريطانية التي غزت العراق، تحت عنوان التمرد في بلاد ما بين النهرين 1920<sup>(9)</sup>، وكتاب الحاكم المدني البريطاني على العراق آرنولد ت. ويلسون (1884-1940)، الذي صدر في جزأين، الأول حمل عنوان ولاءات، بلاد ما بين النهرين 1914-1917: سجل شخصي وتاريخي، من نشوب الحرب إلى موت الجنرال مود<sup>(10)</sup>، والآخر حمل عنوان صدام في الولاءات، بلاد ما بين النهرين 1917-1920: سجل شخصي وتاريخي<sup>(11)</sup>. وفي أواسط الثلاثينيات، صدر كتاب أكاديمي للباحث البريطاني فيليب ويلارد أيرلند (1902-1991)، حمل عنوان العراق: دراسة في التطور السياسي<sup>(12)</sup>، وكان قد صدر قبله كتاب للأكاديمي الأميركي هنري أ. فوستر (1873-1940)، يحمل عنوان صنع العراق الحديث: منتج القوى العالمية<sup>(13)</sup>. وإلى جانب هذه المصنفات، كانت هناك تقارير رسمية بريطانية، تغلب عليها لغة التحليل، ومنها التقرير الشهير الذي اشتراك في كتابته ويلسون ومستشاره المندوب السامي البريطاني في العراق غيرتروود بيل (1868-1926)، ونشر في كتاب حمل عنوان تقييم الإدارة المدنية لبلاد ما بين النهرين<sup>(14)</sup>.

إن ظهور هذه الأعمال سيفسر لنا، جزئياً، تسارع وتكثيف الأعمال التاريخية العراقية التي ترتكز على نشأة الدولة. وأولاً، التوقف عند الكتابين الأولين اللذين صدرتا بعيد تأسيس الدولة، ليماشرا بناء هذه السردية الوطنية، وهما كتابان مؤنسان، يبدأ كلاهما عنوانه بكلمة "تاريخ": تاريخ القضية العراقية لمحمد مهدي البصير (1923)، وتاريخ مقدرات العراق السياسية لحمد أمين العمري

9 Aylmer Haldane, *The Insurrection in Mesopotamia 1920* (London: W. Blackwood and sons, 1922).

وتبيني الإشارة، هنا، إلى أن الأدب والوثائق البريطانية الرسمية، وإلى العشرينات من القرن العشرين، لم تكن تستعمل تعبير "العراق"، بل "بلاد ما بين النهرين Mesopotamia". ولذلك، يسود هذا التعبير الأخير في هذه الكتب وعناوينها.

10 Arnold T. Wilson, *Loyalties, Mesopotamia 1914-1917: A Personal and Historical Record, from the Outbreak of War to the Death of General Maude* (London: Oxford University Press, 1930).

11 Arnold T. Wilson, *A Clash of Loyalties, Mesopotamia 1917-1920: A Personal and Historical Record* (London: Oxford University Press, 1931).

12 الكتاب في الأصل أطروحة دكتوراه من كلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية LSE (1936/1935)، وقد نُشرت في كتاب في العام التالي: Philip Willard Ireland, *Iraq: A Study in Political Development* (London: Jonathan Cape, 1937).

13 Henry A. Foster, *A Making of Modern Iraq: Product of the World Forces* (Norman: University of Oklahoma Press, 1935).

14 Arnold T. Wilson & Gertrude Lowthian Bell, *Review of the Civil Administration of Mesopotamia* (London: H.M. Stationery Off., 1920).

(1925)<sup>15</sup>. وإلى حد ما، يتجاوز هذان الكتابان بناء الدولة، الذي كان جزءاً من العملية الواسعة التي كانا يكتتبان تاريخها، وهي - على نحو أدق - تاريخ صيغة العراق، من حيث هي نضال، ورؤبة، وفكرة. من هنا، يستعمل البصير، والعمري كذلك، تعبير "القضية العراقية"، وهو مصطلح مقتبس من المصطلحات التي راجت في تلك الحقبة، من قبيل "المسألة الشرقية" و"القضية العربية"، اللتين تعنيان المسألة السياسية التي وضعها على طاولة القوى الدولية وال محلية لإيجاد ترتيبات سياسية لمنطقة المشرق العربي ما بعد الدولة العثمانية. ويعني "تاريخ القضية العراقية"، في هذا السياق، تاريخ تكون العراق؛ ليس بوصفه كياناً سياسياً فحسب، يعمل أبناءه في سبيل استقلاله، بل بوصفه أيضاً فكرة، ووجداناً، وثقافة، ورابطة، وجذوراً عميقاً.

كان البصير (1895-1946) والعمري (1889-1974) فاعلين ومنخرطين في التاريخ الذي يكتتبانه؛ فالبصير ناشط سياسي، وأديب، إلى جانب كونه أكاديمياً، وقد كان أحد المحققين الذين نشطوا في ثورة العشرين<sup>16</sup>، أما العمري فهو عسكري ومتثقف من الموصى، كان ضابطاً في الجيش العثماني، وتبأ مناصب عسكرية رفيعة، ثم التحق بالثورة العربية الكبرى في عام 1916. وبعد قيام الدولة العراقية، أُسهم في بناء الجيش العراقي الناشئ، وتبأ مناصب عسكرية رفيعة فيه كذلك، وهو يكتب في الشؤون العسكرية، فضلاً عن كتبه الأخرى، التي تتحوّل تأريخياً من ضمنها التاريخ العسكري<sup>17</sup>. وهذا يعني أنهما لم يكونا يصنعاً السردية التاريخية من موقع خارجي، بل من الداخل. ومن جديد، يشير هذا إلى أن الخطاب ليس أثراً انعكاسياً لاحقاً، بل هو ممتزج بالواقع نفسه، ولا ينفصل عنها، إنه نوع من تأويلها الآني وتعريفها وفهمها وإعطائهما هويتها. إنه الأداة التي تجعل الواقع تتطقّن في اتجاه معين.

وعلى نحو عام، كانت المصنفات التي أنجزها البصير والعمري وسائل النخبة الفكرية والسياسية العراقية آنذاك، منخرطةً، من موقع ما، في عملية بناء الدولة وما رافقها من بلورة للهوية الوطنية وتحديد لكوناتها وحدودها؛ ما يعني أن هذه المصنفات كانت جزءاً من هذه العملية، في جانبها التصوري والخطابي، وهي - وإن تضمنت تأريخاً بالمعنى الدقيق - لم يكن مؤلفوها يضعونها بوصفها نتاجاً لاحترافهم الكتابة التاريخية، وأنها مدونات تاريخية مجردة. ولذلك، لم تزد كتب البصير والعمري، في هذا المجال، عن هذين الكتابين.

## العراق الحديث وثنائية المدون التاريخي - المؤرخ الأكاديمي

بعد سنوات ليست كثيرة، انتقل الأمر من تدوين للواقع التاريخية، يقوم به فاعلون في هذا التاريخ جزءاً من رسم هويتها وإعطائها معنى، إلى تدوين يقوم به مؤرخون واعون بحرفيتهم في التدوين التاريخي، ويعتقدون أن ما يقومون به هو تاريخ محض، لا منتج مرتبط بفاعل تاريجي. ومع أن هذا المنتج قد يكون خاصاً لتأثيرات شتى، فإن القصد الاحترافي لمنتجيه يقتضي منهم أن يصوغوا منتجهم بوصفه يتمتع بالقدر الأدنى المقبول من الموضوعية، والحياد، وسلامة المصادر، وتطابق المدون مع وقائع التاريخ الفعلية كما وقعت.

15 لم تنشر الطبعة الأولى من الكتاب باسم مؤلفه، محمد أمين العمري، الذي اختار نشرها باسم شقيقه محمد طاهر العمري (1928-1991)، بسبب وضعه بوصفه قائداً عسكرياً. وقد كشف عن هذا ابنه المؤرخ خيري العمري (2003-1925)، يُنظر: خيري أمين العمري، *شخصيات عراقية* (بغداد: دار المعرفة، 1955)، ص 87؛ وينظر: كوركيس عزاء، *معجم المؤلفين العراقيين في القرنين التاسع عشر والعشرين: 1800-1969* (بغداد: مطبعة الإرشاد، 1969)، مج 3، ص 105-106؛ ومع أن الكتاب أعيد طباعته في نسخة غير مرخصة، فإن حفيظ العمري أعاد نشره بالاسم الحقيقي للمؤلف، يُنظر: محمد أمين العمري، *تاريخ مقدرات العراق السياسية* (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2017).

16 في سيرة البصير، يُنظر: رفائيل بطي، *الأدب العربي في العراق العربي: قسم المنظوم، ج 2* (القاهرة: المطبعة السلفية، 1923)، ص 93-95؛ علي الخاقاني، *شعراء الحلة أو البabilيات، ج 5* (الطبعة: دار البيان، 1952)، ص 474-476.

17 عن سيرة العمري، يُنظر: عمر محمد الطالب، *موسوعة أعلام الموصى في القرن العشرين* (الموصى: جامعة الموصى، 2008)؛ محمد أمين العمري، ص 6-7؛ عمر الطالب، *موسوعة أعلام الموصى في القرن العشرين*، (حرف الميم)، موقع الدكتور عمر الطالب، شوهد في 9/12/2021، في: <https://bit.ly/3koh09E>

هذه النقلة سينجزها، على نحو أساسى، مؤرخان (بالمعنى التقنى)، وضع كل منهما عدداً كبيراً ومهماً من المصنفات بوصفها تأريخاً لنشأة الدولة، لا بوصفها الجانب والتصورى والخطابى لهذه العملية، وإن كانت لهذين المؤرخين ارتباطاتهما السياسية والفكرية، على نحو من الأنجاء، بعملية بناء الدولة. هذان المؤرخان هما: عبد الرزاق الحسنى (1903-1997) ومجيد خذوري (2007-1909)، اللذان وضعا - في الثلاثينيات والأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين - عدداً كبيراً من المصنفات التاريخية، التي تمثل نتاج "احتراف التاريخ".

وارتباط هذين الاسمين، هنا، ليس مجرد توصيف لواقع الكتابة التاريخية في العراق آنذاك، بل إنهم يمكّن أن يشكلا ثنائية، تعكس تيارات الكتابة التاريخية آنذاك؛ بمعنى أن ثنائية (الحسنى / خذوري) لم تكن تعكس واقع حال الكتابة التاريخية فقط، بل إنها تعبّر - بشكل مكثف - عن المسارين اللذين مضت فيهما الكتابة التاريخية أيضاً.

باشر الحسنى أعماله التاريخية من موقع النخبة القومية التي أمنت بالمشروع الشريفي<sup>(18)</sup> أساساً لعملية بناء الدولة الناشئة. وقد كان أول كتاب نشره هو رواية، تحمل عنوان **تحت ظل المشانق** (1924)، تستلهم الثورة العربية الكبرى<sup>(19)</sup> التي تبعّدها النخبة الشريفية - على نحو عام - مصدر العراق الحديث وأنه امتداد لها وثمرة من ثمراتها. لاحقاً، بدأ الحسنى يقترب من الخط القومى المعارض للتوجهات البريطانية، والذي يتقدمه السياسيان البارزان ياسين الهاشمى (1884-1937) ورشيد عالي الكيلانى (1892-1955). ومع مطلع الثلاثينيات، وإثر ظهور المصنفات البريطانية عن العراق، ومع أن أعمال الحسنى - آنذاك - كانت ترتكز على موضوعين، هما: تاريخ المدن العراقية، وتاريخ المجموعات الدينية في العراق، عمل على غرار غيره من المؤرخين العراقيين، ومنهم خذوري، كما سنالاحظ لاحقاً، على وضع عدة كتب تؤرخ لقيام الدولة العراقية الحديثة، متبنيةً سرديةً أنها نتاج الحركة المناهضة للاستعمار وتغيير عنها. وبالتفصيل، أصدر الحسنى، في الثلاثينيات، ثلاثة كتب ذات صلة بالتاريخ للدولة العراقية؛ فمن جهة، أطلق مشروعه **تأريخ الوزارات العراقية** (1933)؛ إذ أصدر الجزء الأول منه في هذه السنة<sup>(20)</sup>، وبعده، أصدر كتابين، هما: **تأريخ الثورة العراقية** (1935)، وهو أول كتاب يؤرخ لما سينعرف لاحقاً في الأدبيات العراقية "ثورة العشرين"، وال伊拉克 في الاحتلال والانتداب (الجزء الأول، 1935؛ والجزء الثاني، 1938<sup>(21)</sup>). وبعد أن انتهى ارتباط الحسنى بهذا الخط القومى نهايةً مأساوية، تمثلت بسجنه ثلاثة سنوات وفصله من وظيفته الحكومية، إثر تأييده ما عُرف بـ "حركة مايس 1941" وانخراطه فيها، وبعد أن خرج من السجن، بدأت الدولة (ما بعد عام 1946 تاريخ تأسيسها الثاني)، حين أطلقت مسعى لاحتواء النخب المعارضة، بالاقتراب من الحسنى، فأعاد رئيس الوزراء آنذاك نوري السعيد (1888-1958) توظيفه، ليعمل

18 أي المشروع العربي الذي قاده شريف مكة، الحسين بن علي (1853-1931) وأجياله.

19 فيليب حسن علي، عبد الرزاق الحسنى مؤرخاً (بغداد: المركز العلمي العراقي، 2010)، ص 75.

20 هذا المشروع سيستمر عقوداً، بطبعات مختلفة، وأجزاء عددة ستصل إلى 10، تغطي سائر الوزارات العراقية إلى نهاية الحقبة الملكية في عام 1958.

21 من عادة الحسنى أن ينشر مادة كتبه على شكل مقالات في عدد من الدوريات العراقية والعربىة قبل أن ينشرها في الكتب. وكان قد نشر أجزاءً من هذه الكتب السالفة في مجلة العرقان، بدءاً من عام 1930، ونض في بعض هذه المقالات على أنها فصول من هذه الكتب (تأريخ الوزارات العراقية وال伊拉克 في دورى الاحتلال والانتداب، تحدىداً). ولذلك، يمكن القول إن مشروعه في التاريخ للدولة العراقية بدأ منذ ذلك العام، وإنه جزء مركبى في بناء السردات الوطنية. نشر الحسنى مقالاً من ثلاثة حلقات بعنوان "تأريخ الوزارات العراقية"، يُنظر: عبد الرزاق الحسنى، "تأريخ الوزارات العراقية"، العرقان، مج 19، ج 1 (كانون الثاني / يناير 1930)، ص 25-31؛ مج 19، ج 2 (شباط / فبراير 1930)، ص 177-185؛ مج 19، ج 3 (آذار / مارس 1930)، ص 328-333، ونشر مقالاً من حلقتين، بعنوان "دولة العراق". يُنظر: عبد الرزاق الحسنى، "دولة العراق" 1: كيف نشأت وكيف استقلت؟، العرقان، مج 24، ج 1 (حزيران / يونيو 1933)، ص 50-57؛ عبد الرزاق الحسنى، "دولة العراق" 2: قضية الموصل وامتياز النفط، العرقان، مج 24، ج 2 (تموز / يوليو 1933)، ص 166-175. وينظر أيضاً: عبد الرزاق الحسنى، "الوزارة الهاشمية"، العرقان، ج 4-5، مج 21 (نيسان / أبريل 1930)، ص 450-468؛ عبد الرزاق الحسنى، "تأريخ القضية الكردية"، العرقان، مج 24، ج 3 (تشرين الأول / أكتوبر 1933)، ص 247-252؛ عبد الرزاق الحسنى، "الوزارات العراقية"، العرقان، مج 25، ج 1 (نيسان / أبريل 1934)، ص 41-42؛ عبد الرزاق الحسنى، "دور المفاوضات والظاهرات"، العرقان، مج 25، ج 8 (شباط / فبراير 1935)، ص 839-844.

في مجلس الوزراء، وليسلمه السعيد محاضر مجلس الوزراء، طالباً منه استكمال مشروعه عن **تاريخ الوزارات العراقية**<sup>(22)</sup>. لقد كان هذا الارتباط نقطة تحول جديدة لدى الحسني، أسهمت في تشكيل واحدة من السمات الكبرى للكتابة التاريخية في العراق، فأعمال الحسني - منذ نهاية الأربعينيات - بدأت تبني السردية الرسمية للطبقة السياسية الحاكمة (وليس الدولة، بمعناها العام المجرد). ولعل المثال الأهم الدال على ذلك كتابه **الثورة العراقية الكبرى** (1952) الذي تبى فيه سردية تختلف، في بعض توجهاتها، عن السردية التي تبناها في كتابه الأول عن **الثورة العراقية**، لتقرب سريته من سردية الطبقة الشريفية الحاكمة.

لقد كانت لحظة لقاء الحسني بالسعيد هي اللحظة التي أصبح فيها الحسني "مؤرخ الدولة". و"مؤرخ الدولة" ليس منصباً رسمياً، كـ"مفتي الدولة" ، وـ"القاضي" ، وـ"المدعي العام" ، ولكن الصلات (التي قد تكون منظمة ومهيكلة) بين الدولة والمؤرخ الفرد (الذي قد يكون، في لحظة أخرى، مؤسسة) ستمنح الأولى شقة مطلقة بالمؤرخ، تفويضه أن يكتب التاريخ من منظورها هي، لا من منظور نقي، ولا من منظور "الشعب" أو المجموعات السكانية خارجها.

لقد بات ارتباط الحسني بالدولة واضحًا للجميع. وقد جسد، بكافأة، فكرة "مؤرخ الدولة"<sup>(23)</sup>.

أما مجید خدوري فقد بدأ بنشر مؤلفاته الأولى مع مطلع الثلاثينيات من القرن العشرين، إثر عودته حاملاً شهادة البكالوريوس في التاريخ من الجامعة الأميركيّة في بيروت. وقد كانت هذه المؤلفات تدور حول تاريخ الدولة العراقية الحديثة، جزءاً من التيار العام آنذاك. وتحديداً، ركّزت هذه المؤلفات على مرحلة الاحتلال والانتداب البريطاني، فنشر ثلاثة كتب في هذا المجال، هي: **نظام الانتداب (1933)**، **أسباب الاحتلال البريطاني للعراق (1933)**، و**تحرر العراق من الانتداب (1935)**. غير أن ما يختلف فيه خدوري عن مجايليه الحسني، الذي بدأ بالنشر في الوقت نفسه، هو أنه يقدم من خلفية أكاديمية، بل يمكن القول إنه أول مؤرخ عراقي أكاديمي. وإذا كان ما يميز جهود الحسني في تدوين تاريخ الدولة العراقية هو استعمال الوثائق والمقابلات مع الفاعلين الأساسيين، فإن ما يضيفه خدوري (بسبب تكوينه الأكاديمي) هو وضع هذا التدوين في إطار المعرفة العالمية. وبطبيعة الحال، فإن ما يضيفه خدوري في إطار القانون الدولي، وبطبيعة الحال، فإن ما يضيفه خدوري في كتابه **نظام الحكم في العراق (1946)**<sup>(24)</sup> الذي ألهه بعد أن أكمل دراسته للدكتوراه في أحد المراكز الأكاديمية البارزة في هذا الحقل المعرفي. وإذا كانت الدولة قد سيطرت على رواية الحسني، فإن هذا قد حصل بقدر ما مع رواية خدوري؛ إذ عمل أستاذاً في الكليات الحكومية (1939-1947)، وتعاون لاحقاً مع وزارة الخارجية التي أرادت أن تفيد من تحصيله في القانون الدولي، فأصبح مستشاراً لها وعضوًا في فرق التفاوض التي بنته (1940-1947). وفي هذا الإطار، كان خدوري عضواً في الوفد العراقي الذي شارك في مؤتمر سان فرانسيسكو (1945)، وقد أفضى هذا المؤتمر إلى تأسيس ميثاق الأمم المتحدة. وكتابه المذكور آنفًا، **نظام الحكم في العراق**، صدر في أثناء تعاونه مع الخارجية. وهذا يعني، بكل تأكيد، مطابقته للرواية الرسمية.

22 في سيرة عبد الرزاق الحسني، السيد عبد الرزاق الحسني وآثاره الكتبية في بحر ستين سنة من حياته 1920-1980، بقلمه (بغداد: د. م. أ.، 1983)؛ حميد المطبي، **المؤرخ عبد الرزاق الحسني** (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1989).

23 كنت رأيت أن رواية الحسني لثورة العشرين تغيرت بحسب تغير موقعه، من اليمان بالمشروع الشريفي، إلى الانخراط في النخبة القومية المعارضة للنفوذ البريطاني، إلى التحول إلى "مؤرخ الدولة" ، فالحسني كان - في كتابه **تاريخ الثورة العراقية** - صاحب أول شكوى من أن الثورة سُرقت من أهلها، وكان يقصد إنكار دور عشائر الفرات الأوسط، التي أشعلت الثورة، أو التقليل من شأنه. ومع أنه، في هذا الكتاب، تحدث عن تأثير الثورة العربية الكبرى، فإنه عاد - في كتابه **الثورة العراقية الكبرى** (الذي صاغ عنوانه قياساً على الثورة العربية الكبرى) - إلى التركيز على دور النخبة القومية في المدن، واستهجان تضخيم دور المكون العشائري للثورة (يُنظر: حيدر سعيد، "قبل أن تطوي المئوية صفحتها: ثورة العشرين وصراع الذاكرة في العراق" ، محاضرة، سيمinar المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، موقع يوتيوب، 30/12/2020، شوهد في 12/9/2021، <https://bit.ly/3k3L9or>).

24 مجید خدوري، **نظام الحكم في العراق**، ترجمة فيصل نجم الدين الأطرقجي (بالتعاون مع المؤلف) (بغداد: مطبعة المعارف، 1946)، وفي سيرة مجید خدوري، يُنظر: James Piscatori, "The Life and Work of Majid Khadduri," in: James Piscatori & George S. Harris (eds.), *Law, Personalities and Politics of the Middle East: Essays in Honor of Majid Khadduri* (Washington: West View Press, 1987), pp. 3-16.

غير أن خدوري سرعان ما غادر عمله في الدولة العراقية؛ إذ هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية في عام 1947؛ ما قصر فترة سيطرة الدولة على روايته. وبعد هجرته، لم يؤلف خدوري من المصنفات التاريخية إلا القليل، فأصدر ثلاثيَّة عن تاريخ العراق: *العراق المستقل*: دراسة في السياسة العراقية منذ عام 1932<sup>(25)</sup>، *العراق الجمهوري*: دراسة في السياسة العراقية منذ ثورة 1958<sup>(26)</sup>، وال伊拉克 الاشتراكي: دراسة في السياسة العراقية منذ عام 1968<sup>(27)</sup>. ولاحقًا أصدر كتابين، أحدهما تناول الحرب العراقية الإيرانية، وعنوانه *حرب الخليج: أصول النزاع بين العراق وإيران وأثاره*<sup>(28)</sup>، والآخر تناول غزو الكويت (1990-1991)، وعنوانه *الحرب في الخليج 1990-1991: النزاع بين العراق والكويت وأثاره*<sup>(29)</sup>. وإذا عدنا ما أصدره من كتب بالعربية في الثلاثينيات يغطي مرحلتي الاحتلال البريطاني للعراق (1914-1920)، ثم الانتداب (1920-1932)، فإنه - بما أصدره من كتب بالإنكليزية ما بعد هجرته العراق - يكون قد غطَّى تاريخ البلاد، من بدء الاحتلال البريطاني (1914) إلى غزو الكويت؛ فـ*العراق المستقل* يغطي حقبة ما بعد نهاية الانتداب، ونيل العراق استقلاله، ودخوله عصبة الأمم (1932)<sup>(30)</sup>. ويغطي كتاب *العراق الجمهوري* حقبة ما بعد ثورة 1958 حتى انقلاب البُعث الثاني (1968). ويغطي كتاب *العراق الاشتراكي* ما بعد انقلاب البُعث الثاني وحقبة السبعينيات، ثم يغطي كتابه عن الحرب العراقية الإيرانية حقبة الثمانينيات. ويقف كتابه الأخير عند غزو الكويت.

كتاب *العراق المستقل*، الذي أُنجزه خدوري قبل هجرته من العراق على الأرجح<sup>(31)</sup>، والذي يركِّز فيه على حقبة الثلاثينيات ومطلع الأربعينيات، التي شهدت لحظيَّة اهتزاز في النظام السياسي (انقلاب 1936، وحركة مايس وال الحرب العراقية البريطانية 1940-1941)، يمثل امتدادًا للسردية التي تبناها عن نشأة الدولة، فيما أصدره من كتب قبل أن يهجر، ورأيَّت أنها تتطابق مع ما تبناه الطبقة الشرييفية الحاكمة: أن العراق هو نتاج المشروع الشريفي، بل إنه يركِّز، في هذا الكتاب، على نحو لافت، على دور الملك في يصل الأول (1883-1933) في تأسيس العراق وبنائه، فلا يكاد يذكر الحوادث الأساسية التي قادت إلى بناء الدولة العراقية وتأسيس الحكم الوطني، ولا ترتبط بالشريفين بشكل مباشر، وفي صدارتها ثورة العشرين<sup>(32)</sup>. وحتى تركيزه على لحظيَّة اهتزاز النظام السياسي هاتين إنما ينبع - في تقديرِي - من موقعه، الحرِيص على استقرارِ النظام، وليس المُفْسِر لصراعاتِ القوى داخله.

وما عدا ذلك، لم يعد خدوري إلى الكتابة في تاريخ العراق، بل يكاد يكون انصرف عن الكتابة التاريخية، أو مزجها بالكتابة عن السياسة والدبلوماسية وتطورات النظم السياسية. وقد انهمك، على نحو كبير، في تطوير الخط، الذي بدأ في أطروحته للدكتوراه، عن إمكانية تطوير نموذج قانوني معاصر مستمد من الشريعة الإسلامية، ولا سيما في مجال القانون الدولي وال العلاقات الدولية، وهو موضوعه الأثير، الذي أطلق عليه مصطلح "الشريعة الإسلامية للأمم" *Islamic Law for Nations*<sup>(33)</sup>، والذي يقيِّم المختصون إسهامه فيه بأنه

25 Majid Khadduri, *Independent Iraq: A Study in Iraqi Politics since 1932* (New York: Oxford University Press, 1951).

26 Majid Khadduri, *Republican Iraq: A Study in Iraqi Politics since the Revolution of 1958* (New York: Oxford University Press, 1969).

27 Majid Khadduri, *Socialist Iraq: A Study in Iraqi Politics since 1968* (Washington: The Middle East Institute, 1978).

28 Majid Khadduri, *The Gulf War: Origins and Implications of the Iraq-Iran Conflict* (New York: Oxford University Press, 1988).

29 أَلْفَ خَدُورِي هذا الكتاب بالاشتراك مع إدِّمُونْ غَرِيب، يُنظر: Majid Khadduri & Edmund Ghareeb, *War in the Gulf 1990-1991: The Iraq-Kuwait Conflict and its Implications* (New York: Oxford University Press, 1997).

30 في عام 1960، أصدر خدوري طبعة ثانية من هذا الكتاب، تتمدح الحقبة الزمنية التي يغطيها حتى ثورة 1958، وسأحيل عليها لاحقًا.

31 يشير خدوري، في كتابه *نظام الحكم في العراق*، إلى أن كتاب *Independent Iraq* يوشك أن يصدر، يُنظر: خدوري، *نظام الحكم في العراق*، ص. ج.

32 Khadduri, *Independent Iraq*, p. 9.

33 جعل خدوري هذا التعبير (المصطلح) عنوانًا لتقديمه وترجمته إلى الإنكليزية باب "السيَّر" من كتاب الأصل، الذي وضعه أحد مؤسسي الفقه الحنفي، محمد بن الحسن الشيباني (ت. 189هـ/805م)، يُنظر: Majid Khadduri, *Islamic Law of Nations: Shaybani's Siyar* (Baltimore: Johns Hopkins Press, 1966).

وكان خدوري قد بدأ الإشارة إلى الشيباني في:

إسهام أصيل<sup>(34)</sup>. وكان هذا جزءاً من مسعى خذوري العام للتوفيق بين إرث الحضارة الإسلامية (من حيث هو إرث أخلاقي، وليس عقيدة دينية، على نحو ما يرى) والنظام العلماني الغربي<sup>(35)</sup>، وهو موقف ينتمي إلى تيار واسع في الثقافة العربية الحديثة، كان جوابه عن إشكالية العلاقة بالغرب بتبني موقف توفيقي، بين "الأنما" (الذات العربية الإسلامية) و"الآخر" (الغرب)<sup>(36)</sup>.

كتب خذوري أطروحة الدكتوراه، التي نشرها كتاباً بالإنكليزية في مطلع الأربعينيات تحت عنوان **قانون الحرب والسلام في الإسلام: دراسة في القانون الدولي الإسلامي**<sup>(37)</sup>، ثم أصبح هذا الموضوع مساره البحثي الأساسي؛ إذ أعاد نشر الكتاب السالف، بشيء من التوسيع، وبعنوان يختلف قليلاً، ليكون: **الحرب والسلام في الشريعة الإسلامية**<sup>(38)</sup>، وليصبح هذا الكتاب أشهر كتبه، ثم أصدر عدداً من الكتب، التي تدور حول الموضوع نفسه.

وفي كل الأحوال، وبسبب هذا التداخل بين التخصصات، لم يُصنف خذوري في الولايات المتحدة في صنف المؤرخين، بل عُدّ جزءاً من الحقل الذي يُعرف هناك باسم "دراسات الشرق الأوسط"<sup>(39)</sup> (وهو، بالفعل، مؤسس برنامج دراسات الشرق الأوسط في جامعة جون هوبكنز). وثمة من عده قانونياً، بسبب انهماكه في موضوع الشريعة والقانون الدولي، واطلاعه من أجل ذلك على العديد من المدونات

Majid Khadduri & Herbert J. Liebesny (eds.), *Law in the Middle East: vol. I: Origin and Development of Islamic Law* (Washington: The Middle East Institute, 1955).

وفي وقت لاحق، حقق كتاب الشيباني *السيير الصغير*، وأصدره مع مقدمة تتحدث عن إسهامه في القانون الدولي، يُنظر: مجيد خذوري، *القانون الدولي الإسلامي: كتاب السيير للشيباني* (بيروت: الدار المتحدة للنشر، 1975). و"السيير" مصطلح ترازي يشير -لغة الفقه الإسلامي- إلى "علم يبحث المسائل والأحكام التي تبين طرق تعامل الدولة الإسلامية (دار الإسلام)، مع غيرها من الدول والجماعات والأفراد -من أهل الملل الأخرى- في الداخل والخارج". يُنظر: سعد بن مطر العتيبي، *فقه المتغيرات في علاقة الدولة الإسلامية بغير المسلمين: دراسة تأصيلية تطبيقية مع موازنة بقواعد القانون الدولي المعاصر*، ج 1 (الرياض: دار الفضيلة والمنصورة؛ مصر: دار الهادي النبوى، 2009)، ص 70.

وفي الحقيقة، يسبق الاهتمام العالمي بالشيباني، بوصفه أحد "آباء" حقل القانون الدولي، وكذلك محاولة تبيان ما يمكن أن تقدمه الشريعة الإسلامية إلى حلّي العلاقات الدولية والقانون الدولي، إذ ثمة سيل من الأعمال المبكرة في هذا المجال، بدأها عدد من شيوخ الأزهر الكبار، كلّها تسقّي عمل خذوري، منها -مثلاً- كتاب محمود شلتوت الإسلام وال العلاقات الدولية في السلم وال الحرب (1951)، وكتاب علي قراعة العلاقات الدولية في الحروب الإسلامية (1955)، وكتاب محمد أبو زهرة العلاقات الدولية في الإسلام (1964). غير أن ما يميز عمل خذوري، ليس فقط أنه انطلق من حقل القانون الدولي وال العلاقات الدولية، لا الدراسات الإسلامية، على نحو ما يغلب على المحاولات العربية، وليس فقط أنه كتب بالإنكليزية وترجم نص الشيباني التأسيسي إليها، بل لأنّ هذين الأمرين (الانطلاق من حقل القانون الدولي، والكتابة بالإنكليزية) مكّنه من أن يحاوّل نمذجة عمل الشيباني بلغة القانون الدولي الحديث، يلدهم -من ثم- في النقاش القانوني العالمي المعاصر. وهذا يتضمن أن خذوري يعتقد أن خذوري يعتقد أن أهمية

Khadduri, *Islamic Law of Nations*, p. 57. ولذلك، هناك من يجاج -دائماً- بأن خذوري لم يثبت على "النزعة التوفيقية" (كما وصفتها في المتن)، بشكل مطرد، بل إنه ظل يفكّر بثنائية (الإسلام/الغرب)، وأنه -في أحيان غير قليلة- ذهب أبعد، وانجر إلى موقف "دافعي" عن الحضارة الإسلامية، شبيه بموقف العلماء الذين انطلقو في نقاش الأمر من دائرة الدراسات الإسلامية، يُنظر: David A. Westbrook, "Islam in International Law and Public International Law: Separate Expressions of World Order", *Virginia Journal of International Law*, vol. 33, no. 819 (1993), pp. 832-834.

وأنا أتفق، جزئياً، مع هذا الرأي، وأضيف إليه أن خذوري -في هذا- هو الأساس الذي سيتطور عنه عمل لاحق، دفاعي هو الآخر عن الشريعة الإسلامية، وأعني أعمال وائل حلاق (1955-1995) -في هذا المجال، ولا سيما كتابه *الشريعة: النظرية، والممارسة، والتحولات* (2009)، الذي أعاد تختلف الشريعة الإسلامية عن النقاش القانوني العالمي إلى المركبة الغربية. ولا تفوّتي الإشارة، أخيراً، إلى أن خذوري -مع ذلك -فهُم عربياً- في أحيان غير قليلة- بأنه يبني مقاربة استشرافية للشريعة الإسلامية يُنظر الهجوم عليه في: علي علی منصور، *الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام* (القاهرة: المجلس الأعلى للشئون [كذا] الإسلامية، 1971)، ص 238-239، وهي -بلا شك -قراءة نمطية منقوصة.

34 Piscatori, p. 9.

35 Ibid., pp. 14-15.

36 هشام شرابي، *المثقفون العرب والغرب* ، ط 2 (بيروت: دار النهار للنشر، 1978)، ص 21.

37 Majid Khadduri, *Law of War and Peace in Islam: A Study in Muslim International Law* (London: Luzac & Co., 1940).

38 Majid Khadduri, *War and Peace in the Law of Islam* (Baltimore: Johns Hopkins Press, 1955).

39 Piscatori, p. 3.

الفقهية الإسلامية، وعمله عليها تحقيقاً وترجمة<sup>(40)</sup>. ولعل هناك من يحاجج بأنه هو نفسه ربما لم يكن يرى، فيما أجزه من أعمال تأريخية في الثلاثينيات، أنها تنتهي إلى حقل التاريخ، قدر انتماها إلى السياسة وتطور النظم السياسية والقانون الدولي. وفي تقديري، إن هذا السجال ليس فقط مؤشراً من مؤشرات الانتقال من نمط "المدون التاريخي" إلى "المؤرخ الأكاديمي"، بل هو أيضاً مؤشر دال على الديناميكية (الاحتمالية) التي ستفضي بحقل الدراسات التاريخية إلى أن ينفتح على حقول معرفية مجاورة، من قبيل الأنثروبولوجيا، والقانون، والعلوم السياسية، وسواها، وهو ما سيقوم به - لاحقاً - مؤرخون آخرون (عبد العزيز الدوري، 1919-2010، وصالح أحمد العلي، 1918-2003، على نحو ما سلاطحة) من خلال مرجعية نظرية أخرى<sup>(41)</sup>.

في الخلاصة، إذا كان الحسني قد قدم من خلفية صحافية، وكان مثقفاً وكاتباً، وخصص جهده لإنجاح مدونات تأريخية عن العراق الحديث - بمعنى أنه لم يتلق تدريبياً أكاديمياً في التاريخ - فإن خدوري، الذي يشكل الطرف الآخر من الثنائي، خضع لتكوين مختلف؛ إذ درس التاريخ في بغداد وبيروت، ودرس التاريخ في المدارس الثانوية في الموصل وبغداد. ومع أن دراسته للدكتوراه كانت في تخصص العلوم السياسية وال العلاقات الدولية والقانون الدولي، وقد يكون ثمة سجال على مساره البحثي ما بعد هجرته العراق متمنلاً بالسؤال: أخرج من حقل الدراسات التاريخية، أم فتح الحقل على التفاعل مع حقول معرفية قريبة؟ فإن الأكيد أن عقدي النشاط المعرفي اللذين عاشهما في العراق قبل هجرته (وحتى سنواته الأولى بعد الهجرة)، والسجل المعرفي الذي خاضه آنذاك، كان كله يموضع جهوده البحثية الأساسية في حقل التاريخ (وتاريخ العراق ودولته الناشئة تحديداً)، إلى الحد الذي يصفه بعض المؤرخين العراقيين بأنه مؤسس حقل الدراسات التأريخية في العراق<sup>(42)</sup>.

وهكذا، يشكل كل من الحسني وخدوري رأس تيار من تيارين حكماً الكتابة التاريخية في العراق آنذاك، التي تمحورت حول الدولة الناشئة، بحسب ما قدمنا: تيار يقوم بتدوين تاريخ هذه الدولة وما يرتبط بهذه الدائرة، من موقع المؤرخ / المثقف، من دون تدريب أكاديمي<sup>(43)</sup>، وتيار مارس هذا التدوين من موقع الأكاديمي.

40 Ibid., pp. 4-5.

ويذكر الباحث أن خدوري النقى القانوني المصري عبد الرزاق السنهوري (1895-1971)، وتأثر به، حين كان الأخير في بغداد معيدها لمدرسة الحقوق، والأخرى في عام 1943، حين عمل على القانون المدني العراقي، يُنظر: الأولى (1937-1935) كان فيها عميداً Ibid., pp. 5-6.

41 من اللافت لانتباه أن الرابط بين التاريخ وال العلاقات الدولية والقانون الدولي كان أشبهه بتيار في حقل الدراسات التاريخية في العراق، ولا سيما لدى هذا الجيل من المؤرخين الأكاديميين، الذين أكملوا دراساتهم العليا في التاريخ في الولايات المتحدة تحديداً. ويحضر، هنا، عملاً لمؤرخين من هذا الجيل، الأول هو كتاب فاضل حسين مشكلة الموصل: دراسة في الدبلوماسية العراقية - الإنكليزية - التركية وفي الرأي العام (1955)، وهو - في الأساس - أطروحة دكتوراه للمؤلف في التاريخ من جامعة لويزيانا في الولايات المتحدة في عام 1952، وكتاب زكي صالح بريطانيا والعراق حتى عام 1914: دراسة في التاريخ الدولي والتبعية الاستعماري (1968)، وهو - في الأساس - أطروحة دكتوراه للمؤلف في التاريخ من جامعة كولومبيا في الولايات المتحدة في عام 1941. ويشتهر صالح كتابه وأطروحته في حقل "التاريخ الدبلوماسي"؛ ويشرح - نفريًا - طبيعة العلاقة بين التاريخ وال العلاقات الدولية، يُنظر: زكي صالح، بريطانيا والعراق حتى عام 1914: دراسة في التاريخ الدولي والتبعية الاستعماري (بغداد: مطبعة العاني، 1968)، ص 26-28.

42 سيار الجميل، "المؤرخ مجید خدوري.. ابن الموصل يرحل عانًا"، إيلاف، 9/2/2007، شوهد في 9/2/2021، في: <https://bit.ly/3zEpWqt>

43 هذا التوصيف لا يعني أن هذا التيار كان يمارس الكتابة التاريخية من دون خوابط في تحري "الواقع" التاريخية، بل هناك - بالفعل - جملة من القواعد التي يمكن أن تناوش إسقاطها بوجياً، كاعتتماد الوثائق الرسمية والمقابلات وما إلى ذلك. وشخصياً، وعلى الرغم من ملاحظتي العامة المتعلقة بالحسني من جهة أنه أصبح "مؤرخ الدولة"، وهذا يفتح الباب لإمكانية ما للتحيز وما إلى ذلك، وعلى الرغم من أن باحثين كثيرين يعتقدون عن وصفه بـ"المؤرخ" ، ذلك أنه إذا افترضنا أن الكتابة التاريخية، بالمعنى العام، تضم ثلاثة دوائر كبيرة، الأولى هي تدوين الواقع التاريخية، والثانية هي تفسير هذه الواقع، والثالثة هي دراسة طرق الكتابة التاريخية "الهيستوريغرافيا" ، فإن الحسني يقف عند الدائرة الأولى فقط، أقول: على الرغم من كل ذلك، قدم الحسني جهوداً مهمة، وليس ذلك في "تدوين الواقع التاريخية" فقط، التي تهمهم - في العادة - على أنها عملية آلية: الواقع متواتفة، وفي انتظار من يدونها بشكل آلي، بل إنه أسمهم إسقاطاً كبيراً أيضاً في "صنع المادة التاريخية". شخصياً، حين عملت على تاريخ ثورة العشرين، لاحظت الأهمية القصوى للمادة التي وفراها الحسني، حينما استجوبت عدداً كبيراً من الفاعلين التاريخيين، وهي مادة لا غنى عنها: ليس فقط لأنها تقترب مما يعرف الآن "التاريخ الشفوي" ، بل لأنها أيضاً تأثرت للتصورات والتمنيات للواقع التاريخية.

ولذلك، أقصد بتعبير "حقل الدراسات التاريخية"، في هذه الورقة، الدراسات التي نشأت في الإطار الأكاديمي، واعيةً بانتماها الحقلي، ويتجه جزء من عملها إلى هذا الانتماء (في مناقشة النظريات، والمنهجيات، والجوانب الإبستيمولوجية)، وكذلك الدراسات التاريخية التي جرت خارج الحقل الأكاديمي، ولا سيما التي كان مؤلفوها واعين بأنهم ينجزون كتاباتهم بوصفهم "مؤرخين"، وأنها جزء من الكتابة التاريخية المعاصرة في العراق.

غير أن نموذج الحسني سينحصر، شيئاً فشيئاً، أي المثقف الذي يبادر إلى احتراف الكتابة التاريخية من دون تكوين أكاديمي، لصلاحة نموذج المؤرخ الأكاديمي.

وإذا أردنا أن نضع الأمر في منظور أكثر عمومية، فينبغي لنا القول إن هذا الانحسار ليس خياراً كان يمكن تجنبه، وهو ليس خياراً خاصاً بالعراق، بل هو أشبه بالتحول الحتمي الذي يفرضه انخراط العراق في العالم الذي شكله الاستعمار الغربي، والذي لم يكن من نتائجه فقط تبني الحداثة الغربية بوصفها مساراً وحيداً ينبغي أن يسير فيه تطور المجتمعات اللاحقة، بل كذلك تبني نمط المعرفة الذي أنتجه الحداثة الغربية (وهو نمط العلم الوضعي، آنذاك)، بوصفه نمط المعرفة الممكن، الذي سيجذب سائر التراث المعرفي اللاحقي، ليكون - منذ تلك اللحظة - تراثاً تقليدياً، ما قبل وضعي، في حاجة إلى المزيد من التقنية والفحص والمذكرة، حتى يكون مؤهلاً لدمجه بالمعرفة الغربية الحديثة. وينطبق هذا الأمر على كل ما يمكن تصنيفه في "العلوم الاجتماعية والإنسانية" (بلغة المعرفة الغربية) من التراث المعرفي اللاحقي، ومنه التاريخ.

وهكذا، يكون من الحتمي أن يتحول إرث المعرفة التاريخية، الذي خلفته الحضارة العربية الإسلامية، إلى القواعد الوضعية الحديثة، وإن كانت هناك عناصر منهجية من هذا الإرث، يمكن نمذجتها، ليجري نقاشها بلغة ومنطق الإبستيمولوجيا الحديثة.

وإذا كنا، فيما تقدم، قد عزلنا الكتابة التاريخية في العراق في القرن التاسع عشر، من جهة أنها لم تذر على موضوع "الدولة"، كما جرى في الكتابة التاريخية التي زامت الدولة الوطنية الحديثة، فإننا - هنا - ينبغي أن نمضي أبعد، لنقول إن التيار التقليدي، الذي وصفته بأنه يأتي من خارج الأكاديمية، ورافق تشكيل الدولة الحديثة، وجعل منها موضوعاً (بل موضوعه الأساسي) للتدوين التاريخي، وتعبر عنه جهود الحسني، في الثنائية السالفة، كان بمنزلة تيار انتقالي، انتهى إلى الاندماج - بالضرورة - في التيار الأكاديمي الناشئ.

من هنا، يمكن القول، إن انحسار تيار الحسني ليس أمراً حتمياً فحسب، بل إن الثنائية السالفة نفسها، (المدون التاريخي / المؤرخ الأكاديمي)، ليست خياراً من بين خيارات عدة، بل هي خيار وحيد فرضته مرحلة العبور الانتقالية إلى العصر الحديث، التي صممّتها - بقصد أو بغير قصد - اللحظة الاستعمارية.

## الدوري ومجايلوه: الانشداد بين التجديد الإبستيمولوجي وأدلة التاريخ

اضطاعت الجامعة (الحكومية)، بل احتكرت، مهمة إعداد المؤرخين. وهنا، ستتحول الصلات المنظمة بالمؤرخين التي أقامتها الدولة، إلى دولة كاملة لحقل الكتابة التاريخية. وإذا كان خدوري قد ترك البلاد مبكراً، وبات خارج نطاق سيطرة الدولة، فإن الجيل اللاحق من المبعثين للدراسة في الخارج في الدراسات التاريخية، ما بين أواخر الثلاثينيات من القرن العشرين ومطلع الخمسينيات (جود على، 1907-1987، وزي صالح، 1908-1986، وعبد العزيز الدوري، وصالح أحمد العلي، وفاضل حسين، 1914-1989، وسواهم)، هو الذي شغل الجهاز الأكاديمي الرسمي. وبلا شك، قدم هذا الجيل أعمالاً أكثر وعيّاً بالقواعد الإبستيمولوجية للكتابة التاريخية (لاحظ، مثلاً، كتاب زكي صالح مقدمة في دراسة العراق المعاصر، الذي يخصص الجزء الأخير منه لمناقشة المصادر التي يُستقى منها

تاریخ العراق المعاصر وقيمته)<sup>(44)</sup>، إلا أنها لا تخرج عن دائرة السردیات الرسمیة للدولة، ولا سیما تلك التي اختصت بتأریخ الدولة العریقیة المعاصرة<sup>(45)</sup>.

ناقش بعض المؤرخین من هذا الجیل مجموعة من التحدیات المنهجیة والإیستیمولوجیة التي تواجه الكتابة التاریخیة العریقیة الحديثة وموروثها. وقد مکنهم من ذلك تکوینهم الأکادیمی في الأکادیمیات الأوروبیة والأمیرکیة، فناقشوا الإیشکالیات المنهجیة المطروحة من خلال مفاهیم بعض مدارس التاریخ العلیلیة. غير أن هذا النقاش، الذي فتحته المعرفة الحديثة التي حصلها هذا الجیل، لم توضع في مواجهة ما كان يروج من كتابات تاریخیة في العراق آنذا، بل في مواجهة إرث الكتابة التاریخیة الذي خلقته الحضارة العریقیة الإسلامیة بمجمله. ولذلك، عُدّ هذا النقاش تجدیداً ومنعطفاً في الكتابة التاریخیة العریقیة، ولا سیما ما قام به الثنائی الدوری والعلی اللذان فتحا إمکانیة نقل الكتابة التاریخیة، من التاریخ السیاسی، حيث لا ينبغي للكتابة التاریخیة أن تقف عنده، إلى التاریخ الاجتماعی، أي أن يكون التاریخ تاریخاً للبنی الاجتماعیة والاقتصادیة وتحولاتها، وهي النقلة التي نهالاها من أهم مدرسة تاریخیة في أوروبا، آنذا: مدرسة الحولیات<sup>(46)</sup>. تناول كل من الدوری والعلی، في أطروحته للدکتوراه، جانباً من هذا التاریخ البديل: الدوری في كتابه *تأریخ العراق الاقتصادی في القرن الرابع الهجری (1948)*<sup>(47)</sup>، والعلی في كتابه *التنظيمات الاجتماعیة والاقتصادیة في البصرة في القرن الأول الهجری (1953)*<sup>(48)</sup>. من هنا، كانت أعمالُ هذا الجیل بمنزلة لحظة قطیعة مع إرث الكتابة التاریخیة الذي خلقته الحضارة العریقیة الإسلامیة، وتأسیس شکل جدید<sup>(49)</sup>.

وفي الحقيقة، لا ينفصل هذا التحدی عن الدولة الناشئة، التي قلنا إنها تقف خلف كل التحدیات، فهذا الجیل ابتعثته الدولة، حين أرادت أن تبني جهازها البيروقراطی. ومن ثم، لم تُفضِّل هذه الدینامیکیة إلى استنبات العلوم الاجتماعیة والإنسانیة، غربیة الأصل، فقط، وهي نتیجة ضروریة، بل أفضت كذلك إلى وضع هذه العلوم في مواجهة الإرث الثقافیي الخاص للبلاد.

ودائماً، كانت هذه الدینامیکیة تضع التجدد المنهجی في سیاق أسئلة وإیشکالیات أكبر من طابعه الأکادیمی، بل إنها أبقة مفتوحاً على سیاقات متعددة المستویات، فقد كان هذا التجدد يتنفس في بيئة أیدیولوجیة وسیاسیة نشطة. ولذلك، لم يكن هذا الجیل المجدد وكتاباته التاریخیة بعيداً عن التیارات الأیدیولوجیة الصاعدة في البلاد، والمتنافسة فيما بينها. وقد فهمت أعمال العدید من هذا الجیل المؤسّس على أنها متحیزة أیدیولوجیاً، وأنها قومیة الطابع بشكل يتخطى حدود الموضعیة، مع الأخذ في الاعتبار أن الأیدیولوجیا القومیة لم تكن نافذةً فقط، بل كانت أيضاً أیدیولوجیاً السلطة على امتداد حقبة طولیة (1963-2003)، وأن عدداً من هؤلاء المؤرخین انخرط في إدارة أجهزة الدولة الأیدیولوجیة.

44. زي صالح، مقدمة في دراسة العراق المعاصر (بغداد: مطبعة الرابطة، 1953)، ص 185-235.

45. المرجع نفسه؛ فاضل حسين، مشكلة الموصل: دراسة في الدبلوماسية العریقیة - الإنگلیزیة - الترکیة وفي الرأی العام (بغداد: مطبعة الرابطة، 1955).

46. المفارقة أن الاتین لم يتحدثا قط، عن علاقتهما بمدرسة الحولیات، وهم درساً في بريطانيا، وليس في فرنسا. يلاحظ وجیه کوثرانی أن أطروحة الدوری كانت تتزامن مع نضال مورخی الحولیات ضد المدرسة التاریخیة الوضعیة في فرنسا، التي حصرت الكتابة التاریخیة في الأیدیولوجیا القومیة، فضلاً عن أن أستاذة الدوری (هاملتون جب، 1895-1971، وبرنارد لویس، 1916-2018، وسواهما)، تناولوا جوانب من التاریخ الاقتصادی في الحضارة الإسلامیة. وفي كل الأحوال، يعید کوثرانی إسهام الدوری إلى السیاق نفسه الذي ظهرت فيه مدرسة الحولیات، وهو سیاق أزمة الكساد العالی آخر العشرينیات من القرن العشرين، وما خلقته من إعادة فهم الاقتصاد وإعادة ربطه بالسیاق التاریخی، ينظر: وجیه کوثرانی، تاریخ التاریخ: اتجاهات - مدارس - مناهج، ط 2 (الدوحة/ بیروت: المکز العری لالبحاث ودراسة السیاسات، 2013)، ص 280-281.

47. الأطروحة كتبت بالإنگلیزیة. وقد ناقشها الدوری في عام 1942، غير أنها لم تصدر مترجمة إلى العریقیة إلا في عام 1948.

48. الأطروحة كتبت في الأصل بالإنگلیزیة، وناقشها العلی في عام 1949 في جامعة أکسفورد. وقد ترجمتها بنفسه إلى العریقیة، وصدرت في كتاب عام 1953.

49. کوثرانی، ص 278-280.

وإذا كنّا نتحدث عن الثنائي (الدوري / العلي)، فينبعي أن نقول، هنا، إن هذا الأفق الإبستيمولوجي، الذي أتاهه التكوين الأكاديمي الغربي، لم يمنع كلا العلمين من مسيرة سردية الدولة وإعادة إنتاجها فقط، بل كذلك من أدلة الكتابة التاريخية، إلى حد ما؛ فالنزعية القومية أو العروبية في كتابات الجيل السابق من المؤرخين، ستتحول إلى تصور أيديولوجي لدى بعض مؤرخي هذا الجيل، ولا سيما الدوري، وستتحول الهوية العربية من هوية للدولة الحديثة، إلى مفهوم جوهري عابر للتاريخ.

وفي تقديري، إن النزعية القومية لدى الدوري تطورت مع تطور الأيديولوجيا القومية؛ بمعنى أنها لم تكن بهذا الشكل الأيديولوجي الواضح في أعماله الأولى، بل بدأت تتضح وتتضح منذ أواخر الخمسينيات، حين بات الدوري وما يكتب جزءاً من الصراع الأيديولوجي في العراق، آنذا، بين التيار الماركسي والتيار القومي، ولا سيما كتابه *الجذور التاريخية للقومية العربية* (1960)، والجذور التاريخية للشعوبية (1962)، والجذور التاريخية للاشتراكية العربية (1965)، التي يظهر فيها الدوري الأيديولوجي، أكثر من المؤرخ المحترف؛ إذ يقع في نزعة لاتاريخية Anachronism، حين يعيد القومية العربية، أو الهوية العربية من حيث هي هوية سياسية، إلى جذور في الفروسية الإسلامية المبكرة، وحين يعده الشعوبية في الفروسية الإسلامية المبكرة؛ إذ ظهرت هذه النزعية، جذراً لبعض مظاهر السجال السياسي الحديث، وللتيازات اليسارية المناهضة للقومية. وهذا هو الأكثر أيديولوجياً، فهو لا يكتفي بوصف هذه التيازات بـ"الشعوبية"، جزءاً من هذه المناكفة السياسية، بل إنه يعده هذه "الشعوبية المعاصرة" هي الظاهرة، والشعوبية التي وصفتها المصادر العربية القديمة مجرد "جذر تاريخي".

لقد قاد هذا الجُوُّ الأيديولوجي الدوري، بعد أن انخرط فيه، وكانت هذه الكتب جزءاً مباشراً منه، إلى أن يطّور - لاحقاً - بعض أعماله التاريخية بتأثير من هذه النزعية، ولا سيما عملاً أساسياً له، هما: *مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي* (1969)، والتكوين التاريخي للأمة العربية (1983)<sup>(50)</sup>.

إن هذا التوجه، الذي طبع به الدوري الكتابة التاريخية العراقية، وشمل مجاييلين له وعدداً ليس قليلاً من تلامذته، أخذ ذيوعاً عالياً فيما كتب عن الدراسات التاريخية في العراق، وبدأ كأنه وصمة تلازم هذه الدراسات، تتمثل بأنها ذات نزعية أيديولوجية قومية<sup>(51)</sup>.

## خاتمة: أي أفق لتحرّر التاريخ؟

يمكن إيراد العديد من الأمثلة، في حقبة ما بعد الدوري في حقل الدراسات التاريخية في العراق، ومن الأجيال اللاحقة له، عن دولته هذا الحقل، بالدرجات التي سبق وصفها، ووصلت إلى تحويل التاريخ فضاءً أيديولوجياً، تتنفس فيه الأيديولوجيا وتعبر عن نفسها.

<sup>50</sup> في سيرة الدوري، يُنظر: أسماء عبد الرحمن الدوري، "سيرة حياة المؤرخ عبد العزيز الدوري"، مجلة الآداب، كلية الآداب، جامعة بغداد، ملحق العدد 125 (حزيران / يونيو 2018)، ص 149-178.

<sup>51</sup> ينظر مثلاً:

Peter Gran, *Beyond Eurocentrism: A New View of Modern World History* (Syracuse: Syracuse University Press, 1996), pp. 55-87;

كوثري، ص 129-130.

وفي مقابلة (لم تنشر) أجرتها الباحث مع المؤرخ صالح أحمد العلي (بغداد، 2001)، سأله - بشكل مباشر - عن "التهمة" التي تُتهم بها الكتابة التاريخية العراقية بأنها ذات نزعية قومية أيديولوجية، وأنه هو والدوري مسؤولان عنها، فنفي أن يكون هو من هذا التوجه، وقال تحديداً: "إن هذه النزعية مسؤول عنها الدوري وتلامذته من البغشين". وينبعي أن أشير، هنا، إلى أن الدوري لم يكن على وفاق مع البعث وحكمه، وقد غادر العراق مباشرةً بعد انقلاب البغث الثاني في عام 1968، في سياق الصراع بين البعث وحركة القوميين العرب والناصريين، وبعضاً نخب هذا التيار، ولا سيما تلك التي ارتبطت بالحكم العارفي (1963-1968). وكان الدوري قد شغل، في تلك الحقبة، منصب أكاديمياً رسمياً رفيعاً، هو رئيس جامعة بغداد.

وفي الحقيقة، تتتجاوز علاقه الدولة بالتأريخ الأيديولوجيا، فالمنطق الداخلي للدولة (في ثقافة سياسية قريبة من الثقافة السياسية التي نمت فيها الدولة في العراق)، بعض النظر عن الأيديولوجيا التي تتبناها، يحفّزها إلى محاولة السيطرة على حقل الدراسات التاريخية وضبطه، وهو أمر يندرج - بلا شك - في مسعها العام للسيطرة على المؤسسات الأكاديمية، والعلوم الاجتماعية والإنسانية، على نحو خاص، إلا أن حقل الدراسات التاريخية يبدو الأكثر إغراء لمنطق السلطة في السيطرة، من جهة أنه يرتبط بالصورة التي تريد أن تقدمها الدولة عن نفسها. وقد شهد العراق الحديث، منذ تأسيس دولته في عام 1921، محاولات سيطرة مستمرة من الدولة على حقل التاريخ. وما هذه الورقة إلا محاولة لوصف تدرجات سيطرة الدولة على الحقل.

ولا تقف هذه التدرجات عند الحد الموصوف آنفًا: أن يعتنق مؤرخ ما أيديولوجيا الحزب الحاكم، وبخضوع عمله في حقل الدراسات التاريخية لهذه الأيديولوجيا، أو يتبنى مؤرخ ما - حتى من دون إيمان - هذه الأيديولوجيا ليفعل الشيء نفسه، ولا تقف، أيضًا، عند صياغة مناهج مدرسية في التاريخ، فيها الكثير من المناطق المحرمة، أو العمامات، أو المجترأة، والجزء المسموح تعرّضه الدولة من خلال سردياتها، بل إنها ذهبت أبعد من ذلك؛ لأن تدخلت - بشكل مباشر - في عملية كتابة التاريخ وتوجيهها.

وتتضمن الأوراق المقدمة في هذه الندوة العديد من الأمثلة المهمة عن هذه الحالة. غير أن ما حدث هو أن هذه التجربة التاريخية في العلاقة بين الدولة والمؤرخين، والتي اتخذت (أو أسست) نمطًا معيناً، يبدو أنها تحولت إلى تقليد، أو ثقافة تشكّل وعي كلا الطرفين (أو أحدهما) في تعامله مع الآخر، فباتت العلاقة بين الطرفين يحكمها "تلازم منطقي".

وحين تأسست دولة جديدة، في أعقاب الغزو الأميركي للبلاد في عام 2003، ختمت ثمانية عقود من عمر دولة عاشت تموّجات متنوعة، من الليبرالية النسبية، إلى السلطوية الشديدة، لم يستطع النظام الناشئ أن يغيّر طبيعة العلاقة (أو التقليد) بين الدولة والمؤرخ. لقد شهد العقدان الماضيان (وقد جرى إعادة تعريف العراق من كونه دولة - أمة، بمعنى الكلاسيكي، إلى أن يكون دولة متعددة الهويات) صراغاً على رواية التاريخ بين النخب المعتبرة عن هذه الهويات. ويتعدى الأمر، في تقديرى، التنافس في بناء الذاكرة الجمعية، إلى أن يكون جزءاً من الصراع على السلطة، يستصحب التاريخ بالضرورة، الذي لم ينفك عن السلطة/ الدولة بعد.

وإذا كان المجال لا يتسع، في هذه الخاتمة، لإيراد أمثلة دالة على ذلك، فسأكتفي بإيراد مثال واحد، قدّمت جزءاً منه ولا أزال أعمل عليه، عن تحول رواية ثورة العشرين (التي ما انفك الأدباء العراقيون تتعامل معها بوصفها "مأثرة وطنية كبيرة") من كونها الحادث المؤسس للحكم الوطني، إلى أن تكون "منجزاً فئوياً"، لا يرتبط، بذات وطنية عامة ولم تتوجه هذه الذات.

ومن ثم، لا يزال الفضاء الحر عسيراً أمام حقل الدراسات التاريخية في العراق لأن ينمو على نحو مستقل، ونقيدي.

من المؤكّد أنّ هذا لا ينفي وجود العديد من الأعمال الفردية التي تسعى في هذا المسار. ولكن المهم هنا، بالنسبة إلى، أن ندرك أن شرك العلاقة بالدولة، بتتنوعها المختلفة، الذي وجد حقل الدراسات التاريخية نفسه فيه، لا يزال يمثل التحدى الأساسي أمام هذا الحقل، لأنّ يضع منعطفاً نحو أفق آخر.



## References

## المراجع

### العربية

- البصير، محمد مهدي. *نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر*. بغداد: مطبعة المعرف، 1946.
- بطى، رفائيل. *الأدب العصري في العراق العربي: قسم المنظوم*. القاهرة: المطبعة السلفية، 1923.
- الحسني، عبد الرزاق. "تاريخ الوزارات العراقية (1)". *العرفان*. صيدا. مج 19، ج 1 (كانون الثاني/يناير 1930).
- \_\_\_\_\_. "تاريخ الوزارات العراقية (2)". *العرفان*. مج 19، ج 2 (شباط/فبراير 1930).
- \_\_\_\_\_. "تاريخ الوزارات العراقية (3)". *العرفان*. مج 19، ج 3 (آذار/مارس 1930).
- \_\_\_\_\_. "دولة العراق (1): كيف نشأت وكيف استقلت؟". *العرفان*. مج 24، ج 1 (حزيران/يونيو 1933).
- \_\_\_\_\_. "دولة العراق (2): قضية الموصل وامتياز النفط". *العرفان*. مج 24، ج 2 (تموز/يوليو 1933).
- \_\_\_\_\_. "الوزارة الهاشمية". *العرفان*. مج 21، ج 4 و 5 (نيسان/أبريل 1930).
- \_\_\_\_\_. "تأريخ القضية الكردية". *العرفان*. مج 24، ج 3 (تشرين الأول/أكتوبر 1933).
- \_\_\_\_\_. "الوزارات العراقية". *العرفان*. مج 25، ج 1 (نيسان/أبريل 1934).
- \_\_\_\_\_. "دور المفاوضات والمظاهرات". *العرفان*. مج 25، ج 8 (شباط/فبراير 1935).
- \_\_\_\_\_. *السيد عبد الرزاق الحسني وأثاره الكتبية في بحر ستين سنة من حياته 1920-1980*, بقلمه. بغداد، 1983.
- حسين، فاضل. *مشكلة الموصل: دراسة في الدبلوماسية العراقية- الإنكليزية- التركية وفي الرأي العام*. بغداد: مطبعة الرابطة، 1955.
- الخاقاني، علي. *شعراء الحلة أو البabilيات*. النجف: دار البيان، 1952.
- خدوري، مجید. *نظام الحكم في العراق*. ترجمة فيصل نجم الدين الأطرقجي (بالتعاون مع المؤلف). بغداد: مطبعة المعرف، 1946.
- \_\_\_\_\_. *القانون الدولي الإسلامي: كتاب السير للشيباني*. بيروت: الدار المتحدة للنشر، 1975.
- الخفاجي، عصام. "تشكل العراق الحديث: الواقع والأساطير". *مجلة كلمن*. العدد 7 (2012).
- الدوري، أسامة عبد الرحمن. "سيرة حياة المؤرخ عبد العزيز الدوري". *مجلة الآداب*. كلية الآداب، جامعة بغداد. العدد 125 (حزيران/يونيو 2018).
- رؤوف، عماد عبد السلام. *التاريخ والمؤرخون العراقيون في العهد العثماني*. ط 2. لندن: دار الوراق للنشر، 2009 [1983].
- شرقي، هشام. *المثقفون العرب والغرب*. ط 2. بيروت: دار النهار للنشر، 1978 [1971].
- صالح، زكي. *بريطانيا والعراق حتى عام 1914: دراسة في التاريخ الدولي والتوجه الاستعماري*. بغداد: مطبعة العاني، 1968.
- \_\_\_\_\_. *مقدمة في دراسة العراق المعاصر*. بغداد: مطبعة الرابطة، 1953.

## الأخيرة

- Foster, Henry A. *A Making of Modern Iraq: Product of the World Forces*. Norman: University of Oklahoma Press, 1935.
  - Gran, Peter. *Beyond Eurocentrism: A New View of Modern World History*. Syracuse: Syracuse University Press, 1996.
  - Haldane, Aylmer. *The Insurrection in Mesopotamia 1920*. London: W. Blackwood and sons, 1922.
  - Ireland, Philip Willard. *Iraq: A Study in Political Development*. London: Jonathan Cape, 1937.

- Khadduri, Majid & Herbert J. Liebesny (eds). *Law in the Middle East: Vol. I: Origin and Development of Islamic Law*. Washington: The Middle East Institute, 1955.
- Khadduri, Majid & Edmund Ghareeb. *War in the Gulf 1990-1991: The Iraq-Kuwait Conflict and its Implications*. New York: Oxford University Press, 1997.
- \_\_\_\_\_. *Independent Iraq: A Study in Iraqi Politics since 1932 to 1958*. New York: Oxford University Press, 1951.
- \_\_\_\_\_. *Islamic Law of Nations: Shaybani's Siyar*. Baltimore: Johns Hopkins Press, 1966.
- \_\_\_\_\_. *Law of War and Peace in Islam: A Study in Muslim International Law*. London: Luzac & Co., 1940.
- \_\_\_\_\_. *Republican Iraq: A Study in Iraqi Politics since the Revolution of 1958*. New York: Oxford University Press, 1969.
- \_\_\_\_\_. *Socialist Iraq: A Study in Iraqi Politics since 1968*. Washington: The Middle East Institute, 1978.
- \_\_\_\_\_. *The Gulf War: Origins and Implications of the Iraq-Iran Conflict*. New York: Oxford University Press, 1988.
- \_\_\_\_\_. *War and Peace in the Law of Islam*. Baltimore: Johns Hopkins Press, 1955.
- Piscatori, James & George S. Harris (eds.). *Law, Personalities and Politics of the Middle East: Essays in Honor of Majid Khadduri*. Washington: West View Press, 1987.
- Westbrook, David A. "Islamic International Law and Public International Law: Separate Expressions of World Order." *Virginia Journal of International Law*. vol. 33, no. 819 (1993).
- Wilson, Arnold T. & Gertrude Lowthian Bell. *Review of the Civil Administration of Mesopotamia*. London: H.M. Stationery Off., 1920.
- \_\_\_\_\_. *A Clash of Loyalties, Mesopotamia 1917-1920: A Personal and Historical Record*. London: Oxford University Press, 1931.
- \_\_\_\_\_. *Loyalties, Mesopotamia 1914-1917: A Personal and Historical Record, from the Outbreak of War to the Death of General Maude*. London: Oxford University Press, 1930.